أسلوب التَّرقـِّي وتصعيد المعاني
في سورة " الزلزلة "

د. ناصر بن عبد الرحمن الخنين
قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي
كلية اللغة العربية - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

أسلوب التَّرقِّي وتصعيد المعاني في سورة " الزلزلة "

د. ناصر بن عبد الرحمن الخنين
قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي
كلية اللغة العربية – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

ملخص البحث:

لا يخفى أن بدائع النظم في القرآن العظيم بادية، ومظاهر الإعجاز فيه مترادفة، تجعل كل متدبر له حظ من النظر يزداد فكراً ويكتسب معنى بديعاً، ومن جملة ما يسترعي النظر من أساليب هذا الكتاب المعجز (أسلوب الترقي وتصعيد المعاني)، فإنك تلحظ المعنى القرآني تبدو فكرته كالخط البياني، ثم تترقى في تنامٍ لطيف وتصاعد ظريف في أعطاف المعاني، حتى تصل إلى ذروة القمة التي تنتهي بك إلى فكرة المعنى المراد عرضه وتقرير مقاصده، وذلك كله في نظم بديع يدهش البلغاء، ويأسر ألباب العلماء ، ولا غرو في براعته وبلاغته ، فإنه تنزيل من حكيم حميد لا يأتيه الباطل من بين يده ولا من خلفه ، وقد جاء هذا البحث دراسة علمية متخصصة ذات منحى تطبيقي تحليلي ، فاخترت سورة "الزلزلة" لتكون مجالاً للتطبيق ليستبين من خلاله هذا الأسلوب الآسر ، وذلك لاتحاد موضوع السورة، ولعظم أهمية مشمولها، ولتدرج أحداثها بسورة مبهرة، ولأن مكنون معناها يفتقر إلى التذكير به واستحضار مقاصده كل إنسان ، فإنه سيكون في معمعة الأحداث، وستجري عليه تلك العظائم الواردة في السورة بعد نفخ الروح في الأموات، فيخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر، فشد انتباهي جمال نظمها ودقة التصوير فيها بأسلوب الترقي وتصعيد المعاني، فوقع اختياري عليها، وجعلت لهذا البحث خطة من جانبين ، جانب تنظيري، والجانب الآخر مكمل له، وهو جانب تطبيقي، وذلك على حسب ما ورد تفصيله في تضاعيف البحث. وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

المقدمة:

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأصلي وأسلم على المبعوث رحمة للعالمين بشيراً ونذيراً، وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد : فإن بدائع النظم في هذا الكتاب الحكيم بادية، ومظاهر الإعجاز فيه مترادفة، تجعل كل ذي حظ من النظر إذا زاد هذا الكتاب فكراً زاده معنى بكراً، يَتَبَدَّى له بين عينيه، وتظهر بركته عليه وحواليه، وهذا أثر ربّاني من آثار العمل بمقتضى قوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩].

وإن من جملة ما استرعى أنظاري من أساليب هذا الكتاب المعجز العزيز: " أسلوب الترقّي وتصعيد المعاني"، فلقد ألفيته ظاهرة قرآنية منتشرة في كثير من مواضعه، بادية في أغلب موضوعاته، تبدأ باكورة المعنى القرآني كبداية الخط البياني، ثم تترقى في تنامٍ وتصاعد في أعطاف المعاني، حتى تصل إلى ذروة القمة التي تنتهي إليها فكرة المعنى المراد عرضه وتقرير مقاصده، في نظم بديع يدهش البلغاء ويأسر ألباب العلماء، ولا غرو، فإنه تنزيل من حكيم حميد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، جعله الله حجة مستمرة تشهد على الثقلين، ومعجزة خالدة بين يدي خاتم الأنبياء أجمعين إلى يوم العرض الأكبر على رب العالمين.

لذا رأيت دراسة هذا الأسلوب البديع دراسة علمية متخصصة ذات منحى تطبيقي تحليلي، فاخترت سورة " الزلزلة " لتكون مجالاً للتطبيق عليها من خلال ذلكم الأسلوب الآسر، وذلك لاتحاد موضوعها، ولعظم أهمية مشمولها، ولتدرج أحداثها بصورة مبهرة، ولأن مكنون معناها يفتقر إلى التذكير به واستحضاره لدى كل إنسان، برٍ أو فاجرٍ، فإنه سيكون مقصد الأحداث، وستجري عليه تلك العظائم بعدما تُنفخ الروح في الأموات، فيخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر، فشدّ انتباهي جمال النظم ودقة التصوير، بأسلوب بلاغي مثير، تمثل في ترقٍّ متدرج للمعاني وتصعيد عجيب لمجرياتها، أسهم في إخراجه وبناء المعاني فيه أدوات اللغة وفنون البلاغة، حتى تكامل المعنى الكلي، وانبلج المقصود الرباني، ليكون هذا البيان الساطع حجة لله تعالى على الناس أجمعين، إعذاراً وإنذاراً.

وقد سَمّيتُ هذا البحث: " أسلوب التَّرقّي وتصعيد المعاني في سورة الزلزلة " ولم أجد دراسة علمية متخصصة تناولت أسلوب الترقي وتصعيد المعاني في هذه السورة؛ بل إن إفراد هذا الأسلوب بدراسة علمية عامة في القرآن كله يعد نهجاً جديداً؛ وممن اطلعت على أبحاثهم في هذا المقام الدكتور: عبد الله محمد سليمان هنداوي؛ فله بحث منشور؛ بعنوان: " أسلوب الترقي والتدرج في القرآن الكريم "[1]، وهي دراسة فيها جدّة ونوع شمول وشيء من الاستقصاء لأنواع الترقي في القرآن؛ بدأها بالترقي والتدرج في الأمثال، ثم من الأدون إلى الأعلى، ثم من الأخص إلى الأعم، وبالعكس، وجعل منها تقديم الأرض على السماء لإفادة الترقي، والتدرج من المفضول إلى الفاضل، والتدرج في صفات المتقين، والترقي في الأحوال، وفي الدعوة إلى الله تعالى... ونحو ذلك مما يعد جديداً مفيداً، ولكنه لم يتناول سورة معينة؛ ليقف على مقصود معناها، ثم يترقى معه وبه؛ ليصل إلى ذروته، وهذا ما سلكه هذا البحث في سورة الزلزلة؛ مركّزاً على المعنى المتّحد في مضمون واحد.

وقد جعلت هذا البحث قائماً في خطته العلمية على جانبين:

الأول: الجانب التنظيري، متمثلاً في بيان الآتي:

أ- المعنى اللغوي للترقّي والتصعيد.

ب- دلالة حرف العطف بينهما في عنوان البحث.

جـ- مواضع بحث الترقي وتصعيد المعاني في الدراسات البلاغية والقرآنية.

الثاني: الجانب التطبيقي، متمثلاً في بيان الآتي:

أ- موضوع سورة " الزلزلة " ومقامها.

ب- عناصر النظم المؤثرة في أسلوب الترقي وتصعيد المعاني في السورة؛ وذلك وفق التحليل النظمي المتدرج للعناصر المكونة لها حسب الآتي:

١- الظرف واستهلال السورة به.

---

(١) نشر هذا البحث في مجلة كلية اللغة العربية بالزقازيق - جامعة الأزهر (الزقازيق) مجلد: ١١ العدد: ١٣: ٥٣٩ - ٥٨٣؛ وسجل في القسم - لدينا - رسالة دكتوراه بعنوان: بلاغة أسلوب الترقي في القرآن الكريم، للباحث: خالد بن عائض بن محمد القرني، ويشرف عليها الزميل؛ الأستاذ الدكتور: محمد بن علي الصامل؛ عميد كلية اللغة العربية بالجامعة - حالياً - والبحث المذكور تحت الإعداد.

٢- التضعيف للفعل الذي لم يُسَمَّ فاعله.

٣- الاستغراق الشامل.

٤- الإضافة.

٥- الإظهار في موضع الإضمار.

٦- الإسناد.

٧- الاستفهام.

٨- ظرف الزمان.

٩- حروف المعاني.

١٠- الفعل المضارع والحال.

١١- الترتيب والتعقيب.

١٢- الشرط والجزاء.

١٣- التمييز.

وقد سلك هذا البحث في تنفيذ خطته العلمية المنهج العلميَّ القائمَ على التنظير والتحقيق، والتحليل النظمي الدقيق، في سبيل تجلية هذا الأسلوب القرآني البديع؛ الذي سيرى القارئ الكريم – بإذن الله – كيف انتظم هذه السورة الجليلة، وسار معها وبها في دقائق نظمها؛ حتى تمثل المعنى المراد؛ فترقى وتصاعد في مشاهد إيمانية ربانية مؤثرة؛ تجعل كل ذي لبّ يرتجف من هول ذلكم الموقف الأخروي الرهيب؛ الذي نسأل الله – جل في علاه – أن يلطف بنا ويرحم ضعفنا، وأن يتولانا بعفوه ورحمته في الدنيا والآخرة، وصلى الله وسلم على الهادي البشير وعلى آله وأصحابه و أتباعه بإحسان إلى يوم الدين.

أولاً : الجانب النظري :

المعنى اللغوي للترقي والتصعيد :

جاء في معاجم اللغة من معاني " رقا " أنها بمعنى التدّرج والصعود والارتفاع يقول ابن منظور : " رَقِيَ إلى الشيء رُقيًا ورُقُوّاً وارتقى يرتقي وتَرَقَّى : صَعِدَ... ويقال : مازال فلان يترقَّى به الأمر حتى بلغ غايته.... وتَرَقَّى في العلم؛ أي : رَقي فيه درجة درجة.. [1] ".

وأما التصعيد فهو من مادة الفعل الثلاثي " صعد " وقد قال عن معنى أصله اللغوي ابن فارس ما نصه : " الصاد والعين والدال أصل صحيح، يدل على ارتفاع ومشقّة، من ذلك الصَّعُود خلاف الحَدور، ويقال : صَعِدَ يَصْعَد.. والصَّعُود : العقبة الكؤود، والمشقة من الأمر، قال الله تعالى : ﴿ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴾ [المدثر: ١٧]... ومن الباب الصُّعَداء، وهو تنفّس بتوجّع، فهو نَفَس يعلو، فهو من قياس الباب.." [2] .

وجاء في اللسان : " صَعِدَ المكان وفيه صُعُوداً وأَصْعَدَ وصَعَّدَ : ارتقى مُشْرِفاً.. [3] ".

وقال الراغب الأصفهاني : " الصُّعُود : الذهاب في المكان العالي، والصَّعُودُ والحَدُور لمكان الصُّعُود والانحدار.. [4] ".

وبذلك يتبيّن أن المصدر إذا كان مشدَّد الصّاد مضمومَها فهو يدل على فعل الصُّعُود وحركته نحو الارتفاع في المكان المرتفع، وأما إذا كان مشدَّدَ الصاد مفتوحَها فهو يدل على مكان الصّعود وموضعه، وذلك كالوَضوء، مفتوح الواو بمعنى مادة الوضوء وهو الماء، والوُضوء، مضموم الواو بمعنى فعله المعروف بالصفة الشرعية المأثورة.

كما يتبيّن أن من الصُّعود ما ينتهي إلى شَرَفٍ واستشراف، وأن الترقّي هو البداية الفعلية لذلك، وذلك كله بحسب المقامات والأحوال التي تستعمل فيها مادة الترقي والصعود، فإن كان في المكروهات داخَلته المشقة والعنت، ومنه قوله تعالى : ﴿ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴾ [المدثر: ١٧]، وإن كان في المحبوبات كان طيّباً مستطاباً، ومنه قوله تعالى : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ [فاطر: ١٠].

---

(١) لسان العرب : مادة : رقا..

(٢) معجم مقاييس اللغة : مادة : صعد.

(٣) لسان العرب : مادة : صعد.

(٤) المفردات في غريب القرآن : مادة: صعد.

دلالة حرف العطف بينهما :

ولما كان الترقي في الشيء هو البداية الفعلية لصعوده ساغ وقوع حرف العطف بينهما؛ لشدّة تلازمهما؛ حسّاً ومعنى؛ فإنك لا تستطيع أن تصعد جبلاً – مثلاً – إلا بالتدرج مرتقياً جنباته، وهذا الفعل الحسّي يفضي بك إلى الوصف المعنوي؛ فتكون صاعداً في هذه الحالة مُشْرِفاً على ما تحتك متطلعاً إلى ما فوقك؛ فكأن الترقي أصدق ما يكون على الحالة الحسّية، وكأن الصعود أصدق ما يكون على السمة المعنوية؛ ولهذا فإن التلازم بينهما يكاد يكون ظاهراً؛ والذي يرشد إليه ويدل عليه هو حرف العطف الواو؛ فإنها لمطلق الجمع والتشريك مع المغايرة أو شيء منها؛ ولذلك كان عطف التصعيد على الترقي في عنوان هذا البحث؛ لما له من دلالة علمية ستظهر – إن شاء الله – في أثناء الدراسة التطبيقية على آيات السورة الكريمة.

مواضع بحث الترقي وتصعيد المعاني في الدراسات البلاغية والقرآنية :

لم يكن للترقي والتصعيد مصطلح بلاغي مستقر مشهور عند أصحاب الدراسات البلاغية؛ الذين عرف عنهم التأصيل والتقعيد في البحث البلاغي؛ كعبد القاهر الجرجاني، أو أبي يعقوب السكاكي، أو الخطيب القزويني؛ وإنما وردت إشارات عامة في مواضع متفرقة؛ أغلبها تتعلق بالدراسات القرآنية المنقِّرة عن أسرار التنزيل ولطائف الإعجاز؛ في مواضع كالتقديم والتأخير، وترتيب المفردات، ونظم الكلمات، وتقديم الأولى على ما دونه، وهو الذي يدقّق فيه ويتنبّه إليه من أوتي حظاً من اللَّقَانة ورهافة الحس وسلامة الذوق والقدرة على استبصار صلات المعاني، ووضع لبنات المباني في مواضعها اللائقة بها، والناقلة لمضامينها؛ بحسب مقتضايات مقاماتها؛ فيتناتج الفضل ما بين الكلم، وينمو شرف المعنى، ويتكامل من مجموعها؛ من خلال تضامّها؛ بحسب دواعيها؛ وهو ما أشار إليه عبد القاهر الجرجاني؛ في "دلائل الإعجاز" [1]، ونبه عليه الزمخشري في الكشاف في مواضع تتعلق بالتقديم والترقي من الأدنى إلى الأعلى؛ وهذا ظاهر في تفسيره للبسملة [2]، بل نص الزمخشري على أن علم المعاني لا يقتضي غير أسلوب الترقي [3]؛ وزاده تقريراً "

---

(١) انظر : دلائل الإعجاز: ٤٥.

(٢) انظر : الكشاف : ١/ ٤٥، وانظر : الكشاف : ١/ ٢١٤.

(٣) انظر : الكشاف : ١/ ٥٨٧ ورد ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٧٢] في تقديم ذكر المسيح على الملائكة.

ابن المنير " في حاشيته على الكشاف في الموضع الذي ذكر فيه الزمخشري مضمون جملته تلك فقال: " ونحن نمهّد تمهيداً يرفع اللبس ويكشف الغطاء عن قانون البلاغة في الترقي، فنقول: النكتة في قاعدة الترقي والتي تستلزم مراعاته في الكلام البليغ " التنائي عن التكرار والسلامة عن النزول"، وهي توجب في مواضع تقديم الأعلى، وفي مواضع تأخيره، فإذا اعتمدت ذلك، فمهما أدى إلى أن يكون آخر كلامك نزولاً بالنسبة إلى أوله، أو يكون الآخر مندرجاً في الأول قد أفاده وأنت مستغن عن الآخر فاعدل عن ذلك إلى ما يكون ترقياً من الأدنى إلى الأعلى، واستئنافاً لفائدة لم يشتمل عليها الأول.. " [1].

وكأني بابن المنير والزمخشري من خلال فحوى ما تقدم عنهما ينظران في ترتيب الأهم بالتقديم والأولى بالتأخير، بحيث يبنى عليه الترقي في الإفادة الكامنة فيما يؤخر مما له عُلْقة بالمعنى في المفردات المشتركة في معنى واحد، بدليل أن كلامهما عنه ورد في البسملة وآية النساء[2] في مُفْرَدَين يلتقيان في معنى متقارب [3]، في حين أن المراد من الترقي الذي يرمي إليه هذا البحث هو الانتقال بالمعنى في تدرج دقيق عام إلى ذروته، ليحقق المراد منه وفق المقام الوارد فيه، كمن يرقى جبلاً، ويصعد في جنباته إلى أن يتسنّم ذروته، فيكون مشرفاً على ما تحته، محيطاً بما حوله، مهيمناً عليه، ناظرا من علو إليه.

على أن إشارة الشيخ عبد القاهر الجرجاني السابقة أقرب إلى المراد، وذلك لعموم كلامه وشموله لمقامات المعاني وما يناسب دقائقها من الألفاظ الناقلة لها بحسب المقامات، وهو تدرج وترقٍّ يفضي إلى الصعود بالمعاني في ألفاظ تَنْقُل المراد منها بحسب المقتضيات الداعية لها، حتى تحقق الغرض البلاغي منها، بل يذهب عبد القاهر في إدراك الإعجاز من هذا الوجه مذهباً بعيداً، فيرى أنه في كل آية معنى تنتظم به مع ما قبلها، ومعنى تتهيّأ به للانتظام مع ما بعدها، وبذلك كان انتظام الآي داخلاً في معنى الإعجاز الذي لا يأتي الخلق بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً [4].

---

(١) الانتصاف على هامش الكشاف: ١/٥٨٧.

(٢) في تفسير قوله تعالى: في تفسير قوله تعالى: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ ﴾ [النساء: ١٧٢].

(٣) وهو الذي عرّفه الطيبي بقوله: " والترقي وهو أن نذكر معنى ثم يردف بما هو أبلغ منه، كقولك: فلان عالم نحرير... وقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ﴾ [الحشر: ٢٤] أي: قدّر ما يوجد ثم ميزه ثم مثله... ". التبيان في البيان: ٤٩١-٤٩٢.

(٤) انظر: دلائل الإعجاز: ١٨٥.

ومن أقرب مباحث البلاغيين لمعنى الترقي والتدرج في المعاني في سبيل إيفائها حقها مبحث " التَّخَلُّص " القائم على مراعاة الملاءمة بين المعاني والربط فيما بينها، مع الأخذ في الحسبان حالة المتلقي النفسية، الذي يُهَيَّأ، فيتَهيّأ للانتقال من معنى إلى آخر في لطف خَفيّ، يدركه الذكي [1]، وقد حكى ابن أبي الإصبع عن أصحاب الإعجاز أنه نظراً لدقة التخلّص ولطفه فقد عدّوه وجهَ الإعجاز، فقال : " وقد ذهب أصحاب الإعجاز إلى أنه وجه الإعجاز. وهو دقيق في عين الغبي خفي، يخفى على غير الحذاق من ذوي النقد، وهو مبثوث في الكتاب العزيز من أوله إلى آخره، فإنك تقف من الكتاب العزيز على مواضع تجدها في الظاهر فصولا متنافرة لا تعرف كيف تجمع بينها، فإذا أنعمت النظر وكنت ممن له درجة بهذه الصناعة ظهر لك الجمع بينها.. [2] ".

وقد أحسن أحد المتأخرين في حديثه عن الانتقال بين المعاني المتقاربة عندما قال : " ومن الانتقال البديع ما يشبه الانتقال من فرع من فروع الشجرة إلى فرع آخر منها، بينهما مُلامَسَة أو تراكب، أو إلى فرع آخر من شجرة أخرى تلامست أغصانها أو تداخلت وتراكبت [3] ".

فهو انتقال بين المعاني على سبيل تصعيدها وتناسل ألطاف المعاني في أثناء ذلك للوصول إلى ذروتها لتحقق الغاية من إيرادها، وهذا هو الذي يرمي هذا البحث إلى إثباته وتقرير أمره في المعنى الواحد، وليس المراد الانتقال بين المعاني المستقلة، وهو الذي يفهم من كلام أكثر البلاغيين في مبحث حسن التخلص أو براعته، الذي يتعلق بالروابط المعنوية بين المعاني ذوات الاستقلال.

وهذا ما سيتبين في أثناء النظر في دقائق الترقي وتصعيد المعاني في سورة " الزلزلة ".

ثانياً : الجانب التطبيقي:

موضوع سورة " الزلزلة " ومقامها:

سورة الزلزلة سورة مكية [4]، وموضوعها موضوع كوني عظيم، ومقامها هو عرض بياني لمشاهد يوم العرض الأكبر، فمقاصد نظمها ترمي إلى إبراز أحداث يوم القيامة

---

(1) انظر : شروح التخليص: ٤/ ٥٣٢، تعريف الخطيب للتخلّص في التلخيص والإيضاح، وشرح الشراح واستفاضتهم فيه، وتعقيباتهم عليه.

(2) تحرير التحبير: ٤٣٣.

(3) البلاغة العربية : ٥٦١.

(4) انظر : تفسير القرآن العظيم : ١٤/ ٤٢٦.

وتصوير أهواله، ذلكم اليوم العظيم، الذي تنكشف فيه الأمور، ويقع – بإذن الله – القدر المقدور، ويظهر الفزع الأكبر على الناس أتم ظهور، من هول ما يلم بالأرض وينتابها من جميع جوانبها، وما ينال الناس بعد ذلك من آثار، وما ينكشف لهم فيه من دقيق الأخبار، ثم ما ينبني على ذلك من مآلات كل واحد منهم، إما إلى جنة وإما إلى نار، كلّ ذلك وغيره من الأحوال والمقامات تَدَرجّت السورة في تصويره، وترقّت في الكشف عنه، فتنامت المعاني وتناسلت وتصاعدت وترادفت في مبان معبّرة، وألفاظ دالة مصوّرة، انبنى بعضها على بعض، في نسق بياني باهر، وتصوير معجز قاهر، ونظم السورة بهذا التدرج الحكيم، وذلكم الترقي العجيب صَعَد بمعانيها إلى سلّم مقاصدها، فتضافرت عناصر النظم على إظهار هذا الحدث الهائل، وتصويره في تسلسل جذاب، وعرض يأخذ بمجامع الألباب، تنامى وتصاعد حتى انجلت الغايات، بما يفي بالمقامات، فكل واحد من عناصر النظم في السورة أسهم بذاته في سياق إخوته، وانضم إلى ما قبله وإلى ما بعده في تناسق وتعاضد وتآزر، حتى تحققت المقاصد البيانية الربانية في هذه السورة القرآنية، الجامعة لأحوال العباد في يوم المعاد .

عناصر النظم المؤثرة في الترقي وتصعيد المعاني في السورة :

إن من ينعم النظر في نظم هذه السورة العظيمة، ثم يمعن الفكر في دلالات نظمها يجد أنه قد اجتمع فيها من عناصر النظم المؤثرة، ومن مظاهر البيان المعبرة ما جعل الغرض البلاغي من نزولها يتجلى في معاني كلمها، ويستبين من مقاطع فواصلها، فكان اجتماع تلك العناصر النظمية، وانضمام هذه الظواهر اللغوية أمارة من أمارات إعجازها، ولعلنا نقف وقفات بيانية مع كل عنصر على حدة، حتى نعرف الوظيفة اللغوية التي أدّاها في النظم الحكيم، وحتى نستجلي درجة التصعيد البياني التي نهض بها في سُلّم مقاصد السورة الكريمة، وذلك وَفْقَ التدرج النظمي الآتي:

١- الظّرْف (إذا) واستهلال السورة به:

الظّرف في الأصل اللغوي هو ما كان وعاء للشيء، لذا سُمّيت الأواني ظروفاً، لكونها تستوعب ما فيها، كما سُمّيت الأزمنة والأمكنة ظروفاً، لأن الأحداث والأفعال تحصل فيها، فهي كالأوعية لها [1].

---

(١) انظر: لسان العرب: مادة: ظرف.

وسورة " الزلزلة " افتتحت بـ " إذا " الظّرفية، وهي هنا ظرف لما يستقبل من الزمان، مبنية على السكون، متضمّنة معنى الشرط، متعلّقة بجوابها، وهو الناصب لها، وهو قوله تعالى [... تُحدِّث...] [1]، وهذا الفعل الذي عمل النصب في [إذا] عمل النصب في الظرف الآخر [يومئذٍ] الذي هو بدل من [إذا] [2]، والتقدير: يوم إذ تزلزل الأرض وتخرج أثقالها ويقول الناس مشدوهين: ما لها ؟ تحدِّث أخبارها [3]...

والسؤال وارد عن سرّ استهلال السورة بـ " إذا " التي هي للتوقيت الزماني المستقبلي، وما علاقة هذا الافتتاح بموضوعها ؟! وما الذي قدّمه الظرف لهذا الموضوع ؟ وقد أجيب عن ذلك بأن القوم كانوا يسألون النبي عليه الصلاة والسلام، متى الساعة؟ فقال: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ﴾، كأنه قبل: لا سبيل إلى التعيين بحسب الوقت، ولكن من خلال العلامات القاطعات، وأعظمها وقوع ما ذكر، وقد يكون سبب الافتتاح راجعاً إلى أن الله تعالى أراد أن يخبر المكلَّف أن الأرض تحدث وتشهد يوم القيامة، فكأنه قيل: متى ذلك؟ فقال: ﴿إِذَا﴾ [الزلزلة: ١] [4]، ولعل الغرض البلاغي من ذلك هو الزيادة في الترهيب، فيجيل الكافر النظر في وضعه تفكيراً، فيتراجع ويتأمل، فيسلم، وليزداد المسلم في دينه إيمانا ويقيناً، فيتقي ويخبت، فيشمر. ويقرر هذا المعنى ويؤكده اصطفاء " إذا " المضمَّنة معنى الشرط الداخلة على الفعل المقطوع بوقوعه، فلما كان فعل الزلزلة مقطوعاً بوقوعه اقتضى المقام " إذا " دون غيرها [5]، ليتحقق هذا الغرض، وليتحقق وجه ارتباط السورة، وينسبك نظم معناها مع ما قبلها، وهي سورة " البيّنة " في انتظام دقيق، يترقى المعنى بعده تدريجياً، فتولت سورة " الزلزلة " تفصيله وتصعيد معناه، يقول أبو حفص الحنبلي " وجه المناسبة بين أول هذه السورة وآخر السورة المتقدمة أنه تعالى لما قال: [جزاؤهم عند ربهم] فكأن المكلَّف قال: ومتى يكون ذلك؟ فقيل له: [إذا زلزلت الأرض] فالعاملون كلهم يكونون في الخوف، وأنت في ذلك تنال جزاءك، وتكون آمناً، لقوله

---

(١) انظر: حاشية محيي الدين شيخ زادة: ٨/ ٦٦١.

(٢) انظر: الكشاف: ٦/ ٤١٤.

(٣) انظر: التحرير والتنوير: ٣٠/ ٤٩٢.

(٤) انظر: التفسير الكبير: ٣٢ / ٥٧. واللباب في علوم الكتاب: ٢٠ / ٤٤٥.

(٥) انظر: التفسير الكبير: ٣٢ / ٥٧. ونظم الدرر: ٢٢ /٢٠٢.

تعالى: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ [النمل: ٨٩]، وقيل: لما ذكر في السورة المتقدمة وعيد الكافر ووعد المؤمن أراد أن يزيد في وعيد الكافر، فقال: أجازيه، حتى يقول الكافر السابق ذكره: ما للأرض تزلزلت، نظيره: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، فذكر سبحانه الطائفتين، وذكر ما لكل طائفة، ثم جمع بينهما في آخر السورة بذكر الذرة من الخير "[١].

وأما نكتة افتتاح معاني السورة بالظرف "إذا" وتأسيس ما بعده من جُمَل عليه، وجعلها تترقى من خلال قاعدته فيقول عنه "ابن عاشور" ما نصه: "افتتاح الكلام بظرف الزمان مع إطالة الجمل المضاف إليها الظرف تشويق إلى مُتَعَلَّق الظَّرْف، إذ المقصود ليس توقيت صدور الناس أشتاتاً لِيُرَوا أعمالهم، بل الإخبار عن وقوع ذلك وهو البعث، ثم الجزاء، وفي ذلك تنزيل وقوع البعث منزلة الشيء المحقَّق المفروغ منه، بحيث لا يَهُمُّ الناسَ إلا معرفة وقته وأشْرَاطِه، فيكون التوقيت كناية عن تحقيق وقوع الموقَّت "[٢].

٢- التضعيف للفعل الذي لم يسم فاعله [زُلْزِلت]:

مادة الفعل (زَلّ) تدل على الاضطراب وعدم الثبات، ومنه قيل للذَّنْب من غير قصد زَلَّة، تشبيهاً بزلّة الرِّجْل، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [آل عمران: ١٥٥]، أي: استجرهم الشيطان حتى زَلُّوا، فإن الخطيئة الصغيرة إذا ترخّص الإنسان فيها تصير مُسَهِّلَةً لسبيل الشيطان على نفسه[٣]. والتَّزلزل: الاضطراب الشديد، وتكرير حروف لفظه فيه تنبيه على تكرير معنى الزَّلل فيه[٤]، فكأنه تصوير دقيق للمعنى من خلال جرس اللفظ المُعَبِّر عنه، ذلك أن المادة اللغوية لفعل "زَلَّ" مكونة من حرف "الزاي" و"اللام" المشدَّدة، وحرف "الزاي" من حروف الصفير، وهي حروف تَنْسَلّ انسلالاً ما بين طرف اللسان وملتقى الثنايا، وحروف الصفير السين والصاد والزاي[٥]، وحقيقة الصفير حدة الصوت الذي يخرج بقوة مع الريح، كالصوت الخارج عن ضغط ثقب[٦]، والصفير صفة

---

(١) اللباب في علوم الكتاب: ٢٠ / ٤٤٤ - ٤٤٥.

(٢) انظر: التحرير والتنوير: ٣٠ / ٤٣٢.

(٣) انظر: المفردات: ٢١٤، ولسان العرب: مادة: زلل.

(٤) انظر: المفردات: ٢١٤.

(٥) انظر المقتضب: ١ / ١٩٣.

(٦) انظر: الدراسات الصوتية عند علماء التجويد: ٢٦٨.

ذاتية في حروفه لا تنفك عنها، وحروف الصفير تخرج من مخرج واحد، ولكن الفرق بينها هو الهمس في السين والجهر في الزاي والإطباق في الصاد [1].

وعند التدقيق في حرف " اللام " أحد جذور مادة الفعل " زَلَّ " نجد أن مخرج اللام ما بين حافتي اللسان مع رأسه، وما يحاذي الجميع من اللّثة العليا؛ واللام أوسع الحروف مخرجاً، لطول مخرج حرفها مع تقوس اللّسان منطبقاً على اللّثة، مع شيء من الانحراف عند النطق بها؛ لذا سميت اللامُ الصَّوتَ المنحرف [2].

فاجتمع في مادة الفعل " زَلَّ " خصائص الصّفير مع الجهر، المتمثل في صوت حرف " الزّاي "، والسعة والشمول مع الانحراف، المتمثل في مخرج صوت اللام؛ فإذا انضم إلى ذلكم كلّه تضعيف هذه المادة اللّغوية بتكريرها " زلزل " تَبيَّن عظم دلالة هذه الصيغة على المراد منها [3]، وهو تحريك الأرض بشدة متناهية، وتغيير ثوابتها، وإزالة معالمها، وتدمدم أركانها، وصدور أصوات شديدة في أثناء ذلك وتعاليها، أزيزاً وصفيراً، واضطراباً متداخلاً شاملاً [4]؛ فكانت خصائص حروف مبنى الفعل دالةً دلالة تصويرية على المعنى المراد منه في مقام السياق الوارد فيه، وهنا مكمن الدّقة في اصطفاء الكلمة المناسبة، ثم توظيفها صوتيًا ودلاليّاً في خدمة المعنى المراد؛ لتسهم في تأدية المقصود الأعظم، الذي وردت من أجله السورة الحكيمة، وهذا هو باب البلاغة ولبابها.

على أن حذف فاعل الزلزلة وهو المسند إليه، وبناء الفعل على ما لم يُسَمَّ فاعله زاد في هول الحدث، وأوقع في النفس صورة تهزّ الكيان، يطير من هولها صواب كل إنسان، ذلك أن حذف الفاعل – للعلم به وهو الله تعالى – وطيّ ذكره يجعل تفكير الذهن مرتكزا على المادة الفعلية المفعولة، فيهتم الفكر بها، ولا يتشتت عنها؛ لما سَيُبْنَى عليها من أحداث عظام، وأمور جسام. وقد نتج عن حذف الفاعل وطيّ ذكره أنْ ضُمّت "الزّاي"؛ والضمة أقوى من الفتحة التي ستكون لو سُمّي الفاعل؛ فتقوَّى الفعل بحرف الصَّفير المضموم، ثم ازداد قوة وعنفاً بكسره بعد اللام ذات الشمول العام، والكسرة

---

(١) انظر: الدراسات الصوتية عند علماء التجويد: ٢٦٩.

(٢) انظر: الدراسات الصوتية عند علماء التجويد: ١٧٥.

(٣) انظر: التحرير والتنوير: ٣٠ / ٤٣٢.

(٤) يقول الألوسي في معنى (إذا زلزلت الأرض): " أي حركت تحريكاً عنيفاً متداركاً متكرراً " روح المعاني: ٣٠ / ٢٠٨.

أقوى الحركات وأشدّها، فانضمت قوة إلى قوة في هزّ وانحراف وأزّ، فكان المعنى المراد مُستَحْضَراً في صدى صوتي معبّر، زاد في دلالة حتمية وقوعه التعبير عنه بصيغة الفعل الماضي، الدال على وقوع الحدث والفراغ منه، مع أنه لم يقع بَعْدُ، وإنما سيقع في المستقبل، وهذا من التعبير عن المستقبل بصيغة المضيّ، تنبيهاً على تحقق وقوعه، فهو أبلغ وآكد في تحقق الفعل وإيجاده، وإنما يفعل ذلك إذا كان الفعل المستقبل من الأشياء التي يستعظم وجودها [1]، فهو كالواقع حقيقة وفعلاً، على خلاف مقتضى الظاهر [2]، والذي سوّغ هذا الخروج في التعبير هو النكتة الآنفة الذكر، مما يجعل ذلكم الحدث الهائل الشامل مُتَصوَّراً، ويجعل كلَّ مؤمن يعدّ العدّة له مُتَّقياً مُشْفقاً مُشَمِّرا، لذا أمر الله تعالى الناس أجمعين بالاستعداد لذلك الحدث، ووصفه بأنه شيءٌ عظيم، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١] .

هذا وينبغي أن يعلم أن حدث الزلزلة للأرض هو الحدث الأكبر الذي هو قاعدة الأحداث التالية له، فقد بدأت به مظاهر أهوال يوم القيامة، ثم تصاعدت، وترقت بعد ذلك، وتفرّعت عنه في تنام وتسارع وتتابع، تكشف عنه عناصر التعبير المؤثرة في بناء أحداث هذه السورة العظيمة.

٣- الاستغراق الشامل (الأرض):

إن تعريف [الأرض] بالألف واللام يفيد الاستغراق الشامل لجميع أجزائها، فلم يسلم ركن من أركانها، ولا جزء من جهاتها من الاضطراب والقعقعة، وهذا يرجّح بأن تلكم الزلزلة المذكورة في السورة هي زلزلة البعث بعد النفخة الثانية [3] لحساب العباد ومجازاتهم على أعمالهم، وكان بناء الفعل للمفعُول وتسليطه على الأرض جميعها دليلاً على سهولة فعل الزلزلة ويسره جداً [4] على فاعله جلّ وعلا، مع ما يواكبه من أهوال وشدّة أحوال، وهذا يُصَعِّد الحدث في ذهن المتلقي، ويعظّمه في حق شاهد الحال وقتها، إذا عَلِمَ أنّ كلّ جوانب الأرض قد تَزَلْزَل واضطرب، وأن الحال غير الحال، فصار النظر مشدوهاً، والعقل مشدوداً إلى معرفة حقيقة ما جرى ويجري وإلى أين المآل؟.

---

(١) انظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ٢ / ١٩٨.

(٢) انظر: شرح التلخيص: ٢٦٢ للبابرتي.

(٣) انظر: نظم الدرر: ٢٢ / ٢٠٢.

(٤) انظر: التحرير والتنوير: ٣٠ / ٤٣٣.

٤- الإضافة (زلزالها):

إن مما يسترعي النظر في النظم الحكيم ليس هو تكرير مادة الزلزلة بمصدرها؛ فهو للتوكيد والتقرير؛ وإنما محل التدقيق هو إضافة مصدر الزلزلة المؤكِّد وقوعَها إلى ضمير الأرض؛ وكان مقتضى الظاهر أن يكون ذلكم المصدر مُطلقاً مُنَكَّرا؛ فيقال مثلاً: إذا زلزلت الأرض زلزالاً..؛ فيكون الغرض منه تحقيق أمرين آخرين غير التأكيد؛ هما: التنكير المفيد للتعظيم. والإيجاز؛ ولكن الأبلغ هو ما عليه النظم الحكيم (إذا زلزلت الأرض زلزالها)؛ ولعل الغرض البلاغي الذي اقتضته الإضافة في سياق المعنى هو الإبانة عن الزلزال المخصوص بالأرض الذي قَدَّره الله لها؛ بناء على حكمته البالغة؛ فهو زلزال شديد آتٍ على جميعها متمكّن منها عَلَمٌ عليها متصل بها [1]؛ فهو في شدّته ليس وراءه ما هو أشدّ منه؛ فكل ما سواه ليس زلزالاً بالنسبة له؛ فالإضافة للعهد؛ ويجوز أن تكون للاستغراق؛ لأن زلزالاً مصدر مضاف؛ فيعم؛ أي: زلزالها كلّه. وهو استغراق قُصد به تصوير واقع الحدث الهائل؛ إذ تكون الأرض بسببه قاعاً صفصفاً؛ وذلك بانكسار ما عليها من الأبنية والأشجار، واندكاك ما فوقها من الجبال والأحجار، ويصير جميع ذلك هباء منبثاً؛ حتى تمهّد الأرض وتتسع لأهل الموقف، من الجن والإنس وصفوف الملائكة..؛ ولا تكون الأرض كذلك إلا بزلزال غير معهود [2]؛ يليق بها ويناسب حجم تكوينها، ولا يعلم ذلك ولا يقدّره إلا الذي خلقها، وكَوَّنَ طبيعتها.

ولو كان مصدرا مطلقاً منكّراً فقيل: زلزالاً..؛ لصدق على أي زلزال اشتد في عظمته أو قلّ؛ ولكن إضافته إلى الأرض صَعَدَت بمعناه عن ذلك، وارتفعت به إلى الزلزال اللائق بها الآتي على جميع أجزائها؛ فلم يعد يحتمل إلا هذا المعنى الذي جرى عليه النظم الحكيم.

٥- الإظهار في موضع الإضمار (وأخرجت الأرض أثقالها):

هذا الحدث العظيم وهو إخراج الأرض أثقالها ليس منفصلاً عمّا قبله بل هو متصل به؛ متزامن معه؛ لذا وقع التشريك بين الحَدَثَين من خلال الواو؛ التي أمَالت الثاني على الأول؛ فعطفته عليه؛ لارتباطه به، وتزامنه معه؛ وقد ترتب على ذلك صعود معنى جديد وظهوره

---

(١) انظر: حاشية محي الدين شيخ زادة: ٤ / ٦٨٥.

(٢) انظر: البحر المحيط: ٨ / ٥٠٠.

في ساحة التدرج المعنوي في عناصر الترقي الواردة في السورة؛ ذلك أن إخراج الأرض أثقالها ناشئ عن انشقاق سطحها؛ وقذف ما فيها من معادن ومياه وكنوز وصخور...؛ وذلك كله من تكرير الانفجارات الهائلة الناشئة عن اضطراب داخل طبقاتها واختلال سائر أجزائها، وانقلاب أعاليها أسافل والعكس [1]؛ فليس الأمر زلزلة فقط، بل صعود إلى ما هو أعلى في المعنى بأن أخرجت الأرض ما في باطنها مما لا يُكْتَنَه كُنْهُه، ولا يُحْصى عَدُّه، فزاد هذا في دهشة الإنسان، وأطار صوابه.

والذي يسترعي النظر في هذا الموضع هو إظهار [الأرض] في موضع يمكن إضمارها فيه، لتقدم ذكرها في الجملة الأولى، ولقربها منها؛ بحيث لم يستدع طول الفصل ذكرها مرة أخرى؛ ولكن خرج الكلام في نسق النظم على خلاف مقتضى ذلك؛ فأُظْهِرت [الأرض] باسمها، ولم يُكْتَف بضميرها العائد إليها عن رسمها؛ لأن المقام اقتضى ذلك؛ فالمقام مقام تهويل وتعظيم [2]؛ فإسناد الإخراج إلى الأرض يزيد من الهول هولاً، ويقطع احتمال بقاء جزء منها محتفظاً بكنزه؛ لم يُخْرِج ثِقْلَه؛ ففي ذلكم التعبير زيادة تمكين للمعنى وتقرير للمضمون، كما أن فيه تثبيتاً للصورة في الأنفس ومزيداً من الإيضاح والجلاء لها؛ في موقف لا يحتمل الغموض ولا الإبهام؛ فالتعبير بالاسم الظاهر هنا والإسناد الصريح إليه دون الاكتفاء بضميره حقَّق المعنى وعزَّزه، ورَقَّاه وصَعَّده؛ وجعل الأنظار تتجه إليه، والعقول تفكّر في مآلاته ومراميه.

ومما يجدر النظر فيه وتأمُّل بناء النظم عليه هو مجيء الفعل في افتتاح السورة مبنيًا على ما لم يُسَمَّ فاعله؛ في حين جاء قرينه المعطوف عليه على عكسه؛ ولعل هذا ضرب من الطباق البديعي الخفي اقتضاه دقيق مقام الجملتين؛ بحسب الوظيفة المعنوية التي أنيطت بهما في بناء جسم المعنى العام في السورة الكريمة؛ فالجملة الأولى إخبار عن زلزلة هائلة فريدة في طبيعتها وشمولها وقوتها آتيةٍ على الأرض كلّها؛ فأُريد التركيز على فعلها ومادّته المرعبة؛ فطُوي ذكر فاعلها؛ للعلم بأنه لا يمكن أن يكون ذلك إلا بإذن مُكَوِّنها وخالقها ابتداء؛ وهو الله جل في عليائه؛ فكأن خُطُورَه على الذهن مُحَصَّل بداهة؛ فاخْتُزِل وطوي؛ ليتوافر الفكر على التفكير في تلكم الزلزلة المضاعفة؛ فتغيرت

---

(١) انظر: التحرير والتنوير: ٣٠/٤٣٣.

(٢) انظر: التحرير والتنوير: ٣٠/٤٣٣.

صورة بناء الفعل، وذلك بضم أوله، وكسر ثالثه؛ تصويراً لشدّة الواقعة وإشعاراً بعظمتها؛ من خلال نطق التعبير بها بالحركات الثلاث: الضمة المشعرة بقوّة الهزّة، ثم سكون يسبق الانهيار، ثم كسرة تؤذن بانكسار كل شيء وتحطّمه وتضعضعه، ثم وقعت الفتحة المؤذنة بانفتاح الأرض وانفراج باطنها؛ لتخرج أثقالها، وما حوته مما في باطنها؛ مما يشهد للعباد أو عليهم.

وأما الجملة الثانية المعطوفة على أختها المشتركة معها في المعنى فإن الإسناد فيها ظاهر للاسم الظاهر، ولم يُطْوَ ذكرُه؛ بأن يُسنَد إلى ضميره، أو يُبْنَى للمفعول ليتشاكل مع ما قبله؛ وإنما عُدل عن ذلك كلّه؛ فأُسند إلى الاسم الظاهر؛ لكون الأرض محلّ الإخراج في الأصل؛ ثم هي فاعلته على سبيل المجاز العقلي؛ بإسناد الفعل إلى مكانه، لا إلى فاعله الحقيقي؛ لشمول الإخراج كل جزء من الأرض؛ حسبما تقتضيه لام الاستغراق؛ فالاسم الظاهر هو مناط الفعل وملابسُه؛ فالمعنى يتم به ويتقرر بذكره؛ فلا يغني عنه سواه، ولا يفي في المقام شيء عداه؛ فكان ما كان؛ مما جرى عليه دقيق النظم في آي القرآن.

ولكن ما مناسبة اختيار فعل الإخراج دون غيره؛ ليكون واقعاً بعد الإخبار بوقوع الزلزلة والاضطراب؟!.

إن مما سوّغ اصطفاء فعل الإخراج من بين سائر ما يدل عليه مما هو رديف له كالإظهار أو الإبراز أو الكشف أو غيره.. هو أن الاضطراب العظيم ينتج عنه كشف لما كان خافياً مستوراً [1] مما هو مستودع في الموضع المضطرب؛ وفعل الإخراج هو الأليق الأنسب لمثل هذا العمل؛ لما فيه من اجتماع القوة في مخارج حروفه الحلقية الأولى، والعمل نفسه يحتاج إلى قوة متميزة؛ تخرج المكنوز من الأسفل إلى الأعلى؛ على صورة مخارج الكلمة أسفل الحلق إلى طرف اللسان؛ وفي معنى الفعل إظهار للمستور، وكشف للمخبّأ، كما أن فيه دلالة على عمق مكان الأثقال المراد إخراجها؛ فليست العملية إظهاراً أو إبرازاً أو كشفاً فقط؛ فإن ذلكم يسير؛ وإنما العمل يفتقر إلى انتزاع وزعزعة وزحزحة واقتلاع من جوف الأرض؛ وهذا الفعل بتلك المعاني المذكورة يؤديها

---

(١) انظر: نظم الدرر: ٢٢ / ٢٠٤.

الفعل [أَخْرَجت]؛ وقد تضمّن مع ذلك معاني ما ذكر مما يُظَنّ أنه من مرادفاته؛ فساغ عطفه على ما سَهّل مخرجَه ومهد له، وهو فعل الزلزلة الآتية على أركان الأرض وثوابتها؛ فكان كالنتيجة التي مُهّد لها بذلكم الفعل العظيم؛ فأسهم بدلالته تلك في رقي المعنى وتصعيد ظلاله.

ولكن ما المراد بأثقال الأرض التي أخرجتها ؟ ولم سلك في ذكرها سبيل الإضافة ولم يسلك سبيل التنكير؛ ليندرج فيه كل ما كان ثقيلا؟!.

لعل مقام المعنى هو الذي اقتضى ما عليه النظم؛ فإن الأثقال: جمع ثِقْل، والمراد به في الآية ما كان مدفوناً في الأرض؛ كالأموات والكنوز التي كان أمرها ثقيلاً على الناس [1]؛ فتنبعث وتخرج متأثرة بذلك الزلزال؛ ويعطي الله الأرض قوة على إخراج ما يتوقف عليه الحساب والجزاء مما كان كامناً مستقراً في جوفها الأرض؛ فيكون هذا مشهداً جديداً يصعد على السطح، ويترقى في مشاهد يوم القيامة المثيرة؛ وإضافة الأثقال إلى ضمير الأرض إضافة تخصيص وتحديد؛ خَصَّصت نوعاً من الأثقال وحدَّدته؛ فليس المقصود كلّ ثقيل ومدفون مما يقتضيه التنكير؛ وإنما المراد ما يقوم عليه موقف الحساب والجزاء؛ من الموتى وما تعلق بهم؛ مما يَشْهَد للمرء أو عليه؛ حسبما تقتضيه إقامة العدل وإظهار القسط بين الناس؛ ليحيى من حيّ عن بينة، ويهلك من هلك عن بيَنة.

٦- الإسناد في جملة [وقال الإنسان...]:

لما كان تعجب الإنسان من هول ما يقع نتيجة منطقية مترتبة على تصاعد تلك الأحداث، متفرعة عنها مترقية عليها جاء عطف حكاية حاله على ما تقدمها؛ لاشتراكها معها، ولكونها من وقائع ذلك اليوم العظيم؛ وخُصّ الإنسان بالذكر دون غيره؛ لكونه مدار الحدث، وموضع الأحداث، ولأنه هو الذي حُمّل الأمانة فتحمّلها من بين سائر المخلوقات؛ فاقتضى ذلك إيقافه على حقيقة أمره؛ إن خيرا فخير؛ وإن شرا فشر؛ كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢]؛ وفي ذلك اليوم يتبيّن مَنْ حَمَل أمانة التكاليف فأدّاها حقاً على وجهها، ومن ضَيّعها عبثا ولم ينهض بها؛ وأعضاء الإنسان وبقاع الأرض تشهد له أو عليه ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾ [النور: ٢٤ : ٢٥].

---

(١) انظر: نظم الدرر: ٢٢ / ٢٠٤، وانظر: روح المعاني: ٣٠ / ٢٠٩.

وغنيّ عن البيان أن حكاية القول بالفعل الماضي [وقال] مع كونه لم يقع، وإنما هو من جملة ما سيقع في المستقبل للدلالة على تحقق وقوعه وأنه كالواقع المحكي المفروغ من فعله، والذي قصّ ذلك وذكره هو مَنْ خلق الإنسان، وقدّر ما له وما عليه وما سيؤول أمره إليه وما سيجري عليه من مشاهد وأحداث؛ فذكره سبحانه بصيغة الماضي لتربية الاستعداد عند كل عاقل من المكلّفين وتنميته؛ حتى يُعدَّ العُدَّة ويأخذ الأهبة ليوم تشيب من هوله الولدان: ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴾ [المزمل: ١٧] ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

وهل المقصود بالإنسان الكافر؟ أو هو شامل لمن يصدق عليه وصف الإنسان؟ الأرجح هو الاستغراق الحقيقي لكل فرد من أفراد الإنسان؛ لما يَبْهرهم من الطامّة العَامَّة، ولما يَغْشَاهم من الداهية اللامّة [1]، وهذا دليل على أن الأمر قد تفاقم وتصاعد، وأن الذهول قد عَمّ وطَمّ ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [الحج: ٢].

٧- الاستفهام [.. ما لها] ودلالته المقامية:

إن السؤال الذي أطلقه الإنسان في ذلكم الموقف العصيب اتسم بالإيجاز وشدة الهلع: [مالها] وقد لا يكون مُوجَّهاً لواحد بعينه، وإنما هو من الإنسان المتسائل نفسه لنفسه؛ تهويلاً وتفظيعاً وذهولاً؛ فأما المؤمن فيقول بعدما يتدارك الأمر ويرجع إليه عقله بعد ذهوله: هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون، وأما الكافر فيستمر في سكرته ويتخبّط في حيرته، ويحشر أعمى كما كان في الدنيا عن الهدى أعمى [2]، ومضمون ذلكم السؤال هو علامة على ترقي المعنى في نفس السائل وصعود أثره إلى حدّ الدهشة والانفعال؛ تعجّباً من هول الأحداث وتغيّر الأحوال؛ فأسهم هذا الإنشاء الطلبي في رسم الخط البياني لحالة الصعود النفسي لدى كل إنسان في ذلكم الموقف الرهيب؛ الذي تتصاعد فيه الأحداث بشكل لم تعهده الأذهان ولم يقع مثله في غابر الأزمان.

---

(١) انظر: روح المعاني: ٣٠ / ٢٠٩، والتحرير والتنوير: ٣٠ / ٤٣٣.

(٢) انظر: حاشية محيي الدين شيخ زادة: ٤ / ٦٨٥.

٨- ظرف الزمان وأثره في استدعاء الحدث ونقل صورته:

إن التصعيد النفسي الذي دَلّ عليه سؤال الإنسان عن حال الأرض بعد تغيير أحوالها بقوله [ما لها] يتطلب جواباً يرقى بالنظم في سلّم المعاني؛ فكان الجواب كامناً في قوله سبحانه: [يومئذ تحدث أخبارها] (١).

وهذا الظرف المركَّب من " يوم " المضاف إلى " إذ "، [يومئذ] بدل من " إذا " التي افتتحت بها السورة، والعامل فيها وفي بدلها هو الفعل الواقع بعدهما [تُحدِّث] (٢)، وهو مكمن الإثارة المعنوية، فقد ترقّى هذا المعنى بالأحداث إلى نطق الجمادات؛ من مواضع الأرض وأجزائها؛ بأن أصبحت هي تحدّث بما فُعل عليها من خير أو شر، وهي أبلغ الشهادات وأقوى البيّنات على أفعال الإنسان التي صدرت عنه، وهو من معاني قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس: ١٢]، ثم إن تنوين العوض اللاحق لـ " إذ " في [يومئذ] له أثره في ترقية المعنى وتهويله واستحضار صورته؛ فقد أشار هذا التنوين إلى جمل جاء هو عوضاً عنها؛ ليُبْرزها في موضعها الذي اقتضى المقام لَمْحَ مضمونها؛ ليقوم عليها مبنى ما بعدها ومعناه؛ وتقدير الجمل المحذوفة المعوَّض عنها بالتنوين: يوم إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت أثقالها وقال الإنسان ما لها تحدث الخَلْقَ بما عندها من الأخبار، كلٌّ بحَسَبِه (٣). وهل هذا التحديث المسند إلى الأرض حقيقي أو هو مجازي ؟ الجمهور على الأول (٤)، وهو مقتضى الظاهر، ويعضده ما رواه الترمذي عن أبي هريرة ﷺ قال: قَرَأ رسول الله ﷺ هذه الآية [يومئذٍ تحدث أخبارها] قال: أتدرون ما أخبارها ؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: فإن أخبارها أن تشهد على كل عبدٍ أو أمةٍ بما عمل على ظهرها، تقول عمل يوم كذا، كذا وكذا، قال: " فهذه أخبارها (٥) ". واستقرار هذا المعنى في نفس المؤمن واستحضار

---

(١) انظر: جامع البيان: ١٥ / ٢٦٦.

(٢) انظر: البحر المحيط: ٨ / ٥٠٠.

(٣) انظر : روح المعاني: ٣٠ / ٢١٠، وانظر: نظم الدرر: ٢٢ / ٢٠٥ .

(٤) انظر: التفسير الكبير ٣٢ / ٥٩.

(٥) أخرجه الترمذي: ٥ / ٤١٦، وقال عنه: هذا حديث حسن صحيح غريب، كما أخرجه الحاكم: ٢ / ٥٣٣، وأحمد: ٢ / ٣٧٤، والنسائي في السنن الكبرى: ٦ / ٥٢٠، انظر تخريج الحديث المذكور مع كلام المحققين عليه في هامش اللباب في علوم الكتاب: ٢٠/ ٤٤٦ – ٤٤٧.

حقيقته من أعظم ما يربي المهابة في قلبه، ويباعد بينه وبين معصية ربه، كما أنه أعظم حافز له على فعل الخيرات وعمل الطاعات في أيام حياته وفي شتى بقاع الأرض ما أمكنه ذلك، لأنها ستشهد له وتخلّد ذكره وتنطق بفعله يوم العرض الأكبر الذي تستعرض السورة الكريمة مشاهده، وفي الوقت نفسه جهل الإنسان – أيّاً كان – بهذه الحقيقة الواقعة يفضي به إلى الفساد في الأرض – غالباً – ثم الفضيحة بعدئذ على رؤوس الأشهاد.

٩ – حروف المعاني وأثرها في الترقي والإقناع:

حروف المعاني كلمات تدل على معنى في غيرها [١]، بحسب مقتضيات المقام ومتلطبات السياق الذي يورد في شأنه الكلام، ونجد في قوله تعالى: [بأن ربك أوحى لها] ثلاثة حروف، أسهمت في ترقية المعنى الذي نهضت عليه سورة " الزلزلة " وأول هذه الحروف هو: الباء، وأظهر ما تكون في تصدير الآية بها أنها تعليل وبيان للسّبب الذي جعل الأرض تحدّث بأخبار ما فُعل عليها من خير أو شر، فدّل معناها على أن مدخولها بيان وتفسير لسبب ما قبلها، لذا امتنع وصل مدخولها بالواو بما قبلها، لوقوعه جواباً عن سؤال منقدح من جملة الآية السابقة عليه، ومضمونه: ما سبب تحديث الأرض بأخبارها ؟ فكان جوابه: [بأنّ ربك أوحى لها]. وثاني هذه الحروف هو " أنّ " التي أضفت على المعنى الذي دخلت عليه توكيداً وتصعيداً، وذلك عندما قَوّت جملة الإسناد الخبري، الذي سيق معناه تعليلاً وبياناً لكون الأرض ناطقة بأخبار الخلق، والسبب هو أن الله الذي خلقها – جلّ في علاه – أوحى لها بأن تنطق شاهدة بما فُعل عليها، فيكون أقوى في الإقناع وألزم في الحجة وأظهر للعدل في مقام الحساب والجزاء، وزاد في لطف المعنى وتقريره اصطفاء عنوان الربوبية وإضافته إلى ضمير المخاطب ليكون اسماً لـ " أنّ "، ودلالته في سياق تصعيد المعنى تفيد أن السيد المالك لشؤون الدنيا والآخرة، المحسن إليك وإلى الخلق أجمعين، العادل بينهم هو الذي أوحى للأرض بما من شأنه إحقاق الحق وإزهاق الباطل [٢] ومجازاة كلٍّ بما يستحقه في أول دار المكافأة والجزاء بعد فراق دار العمل والابتلاء ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦]

---

(١) انظر: الحنى الداني في حروف المعاني: ٢٠.

(٢) انظر: نظم الدرر: ٢٢ / ٢٠٦.

وثالث هذه الحروف اللام في قوله: [أوحى لها]. وهي هنا لانتهاء الغاية [1]، بمعنى " إلى"، وإنما عُدِلَ عن الأخيرة إلى الأولى إيذاناً بالإسراع في الإيحاء مما يكسب المعنى قوة ومهابة، فقال [لها] [2] دون [إليها]، وفي ذلك مراعاة لفواصل الآي [3]، وإحكام التناسب في نظمها وتناسق أواخرها.

١٠- الفعل المضارع والحال في ترقية المعنى وتصعيده:

لقد صُدّرت الآية التالية بالظرف في قوله تعالى: [يومئذٍ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم] وهذا الظرف شديد الصلة بنظيره السابق، الوارد على نَسَقِه [يومئذٍ تحدّث أخبارها]، فهو بدل من جملته، وفيه تصعيد للمعنى ومزيد إظهار لمجريات أمور ذلك اليوم العظيم، والذي تولى كشف المعنى وإبراز هيئة إخراج الناس من قبورهم هو الفعل المضارع [يصدر] المسند إلى الناس كافة، مؤمنهم وكافرهم، مطيعهم وعاصيهم، ودلالة الفعل المضارع اللغوية تفيد استحضار صورة الحدث ورسمها أمام المتلقي، ليتملّى مشاهدها، ويستصحب تبعاتها، ومن المعروف أن الصدور ضد الورود، فالوارد هو الجائي، والصادر هو المنصرف، فاللفظ القرآني يحتمل أمرين، أحدهما: أن الخلق يردون الأرض أمواتاً ثم يصدرون من قبورهم إلى عرصات القيامة أحياء للجزاء والحساب.

والآخر: أن الخلق يردون عرصات القيامة للمحاسبة والمجازاة ثم يصدرون عنها إلى مواضع الثواب أو العقاب [4].

ولا شك في أن مرحلة الصدور هذه هي مرحلة بلغ فيها المعنى رقيّاً إلى الغاية العليا من مقاصد هذه السورة العظيمة، وصعدت فيها أنفاس الناس وأنفسهم إلى الذروة العظمى، وكانت تلك المراحل المتقدمة كالتمهيد لها وكالتوطئة لورودها، وأعان على كشف صورتها مجيء الحال [أشتاتاً] كاشفاً عن هيئات الناس ومساراتهم، فهم يصدرون متفرقين لا يلوي أحد على أحد، وذلك بحسب مراتبهم ودرجاتهم في الذوات والأحوال والأعمال من مؤمن وكافر، وآمن وخائف، ومطيع وعاص [5]، متجهين بعدئذٍ إلى

---

(١) انظر: الجنى الداني في حروف المعاني: ٩٩.

(٢) انظر: نظم الدرر: ٢٢ / ٢٠٦.

(٣) انظر: البحر المحيط: ٨ /٥٠١.

(٤) انظر: التفسير الكبير ٣٢/ ٦٠.

(٥) انظر: نظم الدرر: ٢٢/ ٢٠٧.

شرفاتهم أو دركاتهم، التي قسمها الله تعالى لهم بعدله وفضله؛ فمن زُحزح عن النار وأدخل الجنّة فقد فاز.

ثم إن الذي حدّد علّة صدور الناس متفرقين وبيّن غايته هو حرف التعليل اللام [لِيُرَوا]، فهو متعلق بفعل الصدور مرتبط به [1]، ودلالة حرف التعليل المعنوية ظاهرة وأثره النفسي في تصعيد المعنى متمكن؛ فقد ربط بين فعلين مضارعين؛ الأول هو [يَصْدُر] مبنياً للفاعل مسنداً إلى الناس؛ لأنهم موضع الحدث ومحلّه، والثاني [يُرَوا] مبنيّاً لما لم يُسَمَّ فاعله؛ فقد حذف الفاعل؛ ونكتة حذفه هي أن المقصود الأعلى هو رؤيتهم أعمالهم وإيقافهم على حقيقتها لا تعيين مَنْ يُريهم إياها [2]؛ ولهذا يكون اهتمام المتلقي منصبّاً على الأهم، الذي اصطفي من أجل كشف معناه الفعل المضارع؛ ومن مهامه اللغوية استحضار الصورة المعنوية وتقريبها للأذهان؛ حتى كأنها رأي عيان؛ فإن المقصود الأعظم هو إيقاف الخلق؛ كلّ بحسبه على حقيقة عمله؛ وهنا ذروة الصعود النفسي لدى كل مكلّف؛ فآخذ كتابه بيمينه يكون سعيدا سعادة أبدية، وآخذ كتابه بشماله يكون شقيّاً شقاوة سرمدية.

وقد وردت قراءة أخرى بفتح ياء المضارعة [لِيَرَوْا] ببناء الفعل للمعلوم [3]، مسنداً إلى واو الجماعة العائدة على الناس؛ فيكون فيها تأييد لمضمون قراءة الضمّ، ونوع الرؤية هنا الأعم الأغلب في معناها أنها بصرية؛ لتعديها إلى مفعول واحد [4]، ثم إن المقصود فيها يتوصل إليه بصورة أيسر وأسهل من قراءة الضم، ولما كانت أعمال الخلق أجناساً وأشتاتاً سواء كانت خيراً أو شراً وقع المفعول به مجموعاً في قوله [أعمالَهم] فالمؤمن له أعمال صالحة منوّعة؛ من صلاة أو زكاة أو صيام أو حج أو برّ أو صلة أو علم أو غيره.. وللكافر أعمال طالحة متفرّقة من كفر أو عهر أو ظلم أو جرم أو شرب أو بغي أو فساد أو غيره.

---

(١) انظر: البحر المحيط: ٨/ ٥٠١.

(٢) انظر: التحرير والتنوير: ٣٠/ ٤٣٥.

(٣) انظر: الكشاف: ٤/ ٢٢٨، والبحر المحيط: ٨/ ٥٠١، واللباب في علوم الكتاب: ٢٠/ ٤٥٠.

(٤) انظر: روح البيان: ١٠/ ٤٩٤.

وكل هؤلاء وأولئك على أعمالهم موقوفون وبأعمالهم مجزيون في يوم العرض العادل، الذي تكشف هذه السورة أمره.

١١- الترتيب والتعقيب:

إن من معاني الفاء أن تكون لترتيب المعنى، بأن يكون ما بعدها مترتّباً على ما قبلها متصلاً به قائماً عليه [١]، وهذا ما نجده في المعنى الذي تتحدث عنه السورة، متمثلاً في قوله تعالى: [فمن يعمل مثال ذرة خيراً يره..]، يقول الشيخ الطاهر بن عاشور عن الآية المذكورة آنفاً: "تفريع على قوله [ليروا أعمالهم] تفريع الفذلكة، انتقالاً للترغيب والترهيب بعد الفراغ من إثبات البعث والجزاء، والتفريع قاض بأن هذا يكون عقب ما يصدر الناس أشتاتاً" [٢]، ودلالة فاء العطف على الترتيب والتعقيب في النظم ظاهرة، فإن رؤية كل عامل نتيجة عمله في الدنيا تكون في ذلكم اليوم العصيب، فمن كان عاملاً عمل الخير – مهما كان قدره – فإنه يرى جزاء عمله موفوراً مشكوراً، ومن كان عاملاً عمل الشر – مهما كان قدره – فإنه يرى جزاءه مقدَّراً محصوراً، تشهد عليه الأزمنة والأمكنة والوقائع والأعضاء، وبهذا كان من شأن الفاء ترتيب أصناف الناس وتوزيعهم على حسب أجناس أعمالهم من خير أو شر على ما سبقها، فكان لها أثر في تصعيد المعاني وانتظام المباني على وَفْق ما تقدم في النظم الحكيم، وهي أيضاً تقتضي التعقيب الفوري، بعدما تنكشف الأغطية وتظهر حقيقة كل عبد على بيضاء نقية من غير ظلم ولا هضم، فمن عمل الخيرات في الدنيا يجدها ويرى آثارها، ومن عمل السيئات يلقاها ويعاين عواقبها، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

١٢- الشرط والجزاء:

لقد جرى توظيف أسلوب الشرط وجزائه في السورة الكريمة في مقام خاتمتها توظيفاً أسهم مع الفاء في إبراز نتيجة الزلزلة، وأبان عن حصيلة إيقاف كل إنسان على ماهية عمله في صورة مذهلة، تقوم عليها الشواهد الناطقة وتقررها البراهين الصادقة، فوقع أسلوب الشرط بأداته وجملتيه في تصعيد المعنى والوصول إلى قمته موقعاً عجيباً في تقسيم الناس بحسب نتائج أعمالهم وفرز مآلاتهم، قسمةً لا تقبل الخلط

---

(١) انظر: الجنى الداني في حروف المعاني: ٦٣.

(٢) التحرير والتنوير: ٣٠ / ٤٣٦.

ولا يتسرب إليها الاضطراب؛ مبنية على طبيعة العمل الدنيوي، مؤسَّسَةً عليه؛ فمادة العمل دنيوية، ونتيجتها أخروية، وقانونها الجزاء من جنس العمل؛ بعد البيان والإعذار في الحياة الدنيا؛ [فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره]؛ فتأمل كيف وُظّف جواب الشرط وهو نتيجة تقع في الآخرة ليكون حافزاً على فعل الخير – الذي هو فعل الشرط – لكل ذي لبّ ليغتنم حياته في الدنيا في عمل ما يرفعه ويصعد به في تلك المقامات التي تنقطع فيها سائر الأعمال ولا تنفع فيها الآهات ولا الزفرات ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]. وتعد تلكما الآيتان اللتان تضمنتا أسلوب الشرط بجملتيه أحكم آيتين في القرآن؛ كما نص عليه ابن مسعود ﷺ[1].

ويروى عن كعب الأحبار أنه قال: لقد أنزل الله تعالى على محمد ﷺ آيتين أحصتا ما في التوراة والإنجيل والزبور والصحف [فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره] [2]. وكل من صحّت عربيته وفقه المعاني يدرك ما فيهما من باعث وحافز وزاجر؛ فقد روي أن صعصعة بن ناجية جدّ الفرزدق أتى النبي ﷺ يستقرئه؛ فقرأ عليه هذه الآية؛ فقال: حسبي حسبي؛ إن عملت مثقال ذرة خيراً رأيته، وإن عملت مثقال ذرة شراً رأيته [3]. وفي رواية أنه قال بعدما سمع ذلك: لا أبالي ألا أسمع من القرآن غيرها؛ حسبي فقد انتهت الموعظة [4]. ومن أرق الناس فؤاداً وأحسنهم إدراكاً أبو بكر ﷺ فقد روي أن سورة الزلزلة نزلت وهو يأكل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فترك أبو بكر الأكل وبكى؛ فقال له رسول الله ﷺ: يا أبا بكر ما يُبكيك؟ قال: يا رسول الله: أَوَأُسْأَلُ عن مثاقيل الذّر؟ فقال رسول الله ﷺ: يا أبا بكر ما رأيتَ في الدنيا مما تكره فمثاقيل ذرّ الشرّ، ويدَّخر الله لك مثاقيل الخير [5].

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ٧٢٤٢/١٠.

(٢) انظر: اللباب في علوم الكتاب: ٤٥٣/٢٠.

(٣) انظر: النكت والعيون تفسير الماوردي: ٣٢١/٦ – ٣٢٢.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ٧٢٤٣/١٠.

(٥) انظر: المحرّر الوجيز: ٥٤١/١٥. وانظر: اللباب في علوم الكتاب: ٤٥٠/٢٠-٤٥١؛ الحاشية؛ ففيها تخريج للحديث وذكر لشواهده. وهي بطرقها لا ترقى إلى درجة الصحة، فالله أعلم.

١٣- التمييز:

هذا الأسلوب يقوم في مدلوله على الفصل والتحديد ورفع الإبهام عن الشيء [١]، ويسمى أحياناً: التبيين أو التفسير؛ لأن هذه مهمته [٢]، وقد بانت هذه الوظيفة في التمييز وتجلت في قوله تعالى [خيراً] في سياق جملة الشرط: [فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره]؛ فإنها تمييز على الأظهر الأرجح [٣] لـ [مثقالَ ذرة] لأنه مقدار مبهم فسّره [خيراً] في جانب الصالحات، و [شراً] في جانب السيئات في قوله تعالى [ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره].

وبذلك نلحظ أن "التمييز" في جملة النظم الحكيم قد أسهم في تصعيد المعنى إلى ذروة المنتهى في تحديد مسار الناس يوم العرض الأكبر، وذلك بناء على عواقب أعمالهم ونتائج أفعالهم، من خلال معيار الخير والشر، المحدَّد لهم سلفاً في الحياة الدنيا؛ ذلك أنه ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦]؛ فكل واحد من البشر سيجد أمامه حصاد عمله متميزاً ومُمَيَّزاً؛ فمن زرع الخير حصد ثماره ورآها ماثلة أمامه، وتَحَدَّد مصيره بناء عليها برحمة الله تعالى، ومن زرع الشر حصد آثاره، وتمثَّلت له، ولم يستطع الفرار من عواقب مآتيه.

فجاء " التمييز " بهاتين النكرتين [خيراً] و [شراً] المحدِّدتين لنوعية المقادير الموضِّحَتين لطبيعتها – جاء حَدّاً فاصلاً لتمييز فئات الناس، ورسم مسار اتجاههم؛ إما إلى النعيم، وإما إلى الجحيم، كما جاء هذا " التمييز " نهاية التصعيد المعنوي لأحداث سورة " الزلزلة "؛ إذ بناء عليه عرف كل فريق مصيره، ورأى كل عامل حقيقة أعماله في الدنيا؛ فكُشِفت الحجب وأزيلت الأستار، ونطق ما كان ساكتا، وشهد ما كان عاطلاً، وبان ما كان غامضاً، وانماز العباد فريقين، فآخذ كتابه بيمينه؛ فينقلب إلى أهله فرحاً مسروراً، وآخذ كتابه بشماله مضطرباً حائراً مدحوراً.

* * *

---

(١) انظر: لسان العرب، مادة: ميز.

(٢) التمييز عند النحاة: نكرة منصوبة – في الأغلب – فضلة، بمعنى من التي للبيان؛ انظر: النحو الوافي: ٤١٧/٢، وموسوعة النحو والصرف والإعراب: ٢٧٠.

(٣) انظر: الدر المصون: ٥٥٦/٦، وذكر السمين في الصفحة نفسها رأياً مرجوحاً هو البدلية من [مثقال].

الخاتمة:

وبعد؛ فإني أحمد الله تعالى على ما يسّر من إتمام هذا البحث في صورته العلمية؛ التي استهدفت بيان أسلوب الترقي وتصعيد المعاني في واحدة من سور القرآن الكريم؛ وهي سورة " الزلزلة "؛ وهي مثال حي وبيان ناطق لهذا الأسلوب البياني الدقيق الذي يتَخلل النظم القرآني في كثير من القضايا التي عرضها وبسط مجالاتها في أثناء خطابه للناس أجمعين.

ويحسن في خاتمة هذا البحث أن أجمل أبرز ما تَحَصَّل من نتائجه في ضوء تطبيق أسلوب الترقي وتصعيد المعاني على الموضوع القرآني الذي عرضته سورة " الزلزلة "؛ وذلك على النحو الآتي:

١- تبيّن من المعنى اللغوي للترقي والتصعيد أن بينهما معنى مشتركاً لطيفاً، كما أن بينهما فرقاً معنوياً طريفاً؛ فكل ترقٍّ يتخلله صعود وينتهي به، وكل صعود يبدأ بترقٍّ وينهض به؛ فأحدهما بداية للآخر، والآخر نهاية له؛ لذا جرى وسم البحث بهما مقترنين.

٢- أن الترقّي يكاد يَنْزع ويظهر في الحسّيات، وأما التصعيد فيكاد يغلب ويتبيّن في المعنويات؛ مع شيء من التلازم بينهما.

٣- أن مصطلح " الترقّي " لم يكن من جملة ما نضج وظهر من المصطلحات البلاغية المعروفة عند أرباب الدراسات البيانية من ذوي التأصيل المنهجي؛ وإنما ورد في صورة إشارات عامة في مواضع علمية متفرقة في أثناء التنقير عن أسرار التنزيل في آي الذكر الحكيم؛ في مقامات التقديم والتأخير، وترتيب المفردات، وتقديم الأولى.. وهكذا.

٤- يعد عبد القاهر الجرجاني وجار الله الزمخشري من أوائل من ذكر هذا الأسلوب وألمح إلى دلالته وألمع إلى بلاغته؛ ولكن من غير إشهار ولا استكثار.

٥- أن أسلوب الترقّي وتصعيد المعاني أصدق ما يكون في القضايا الكلية ذات المعنى الواحد؛ فبه تكتمل القضية؛ ومن خلاله تستتم في تدرج بيّاني ذاتي وتنامٍ معنوي دلالي، يقتضيه مقام المعنى، وتخدمه أدوات اللغة ومفرداتها؛ حتى ينتظم المعنى ويتكامل بداية ونهاية في نظم لغوي مبهر؛ ذي أثر بلاغي آسر.

٦- أن سورة " الزلزلة " ذات موضوع كوني واحد، تجلّى فيها أسلوب الترقي وتصعيد المعاني في صورة بناء لغوي متناهٍ في الدقة والإحكام، ترقّت فيه المعاني وتناسلت في تصاعد وتنام، حتى وصلت الذروة وعلت إلى الغاية، في تصوير بياني متصاعد، صعدت معه أنفاس الناس، وطار صوابهم في خضم أهوال تلك الأحداث الهائلة، إلى أن انمازوا بحسب أعمالهم ذات اليمين وذات الشمال، فكانت هذه السورة من أمثل ما يمثّل هذا الأسلوب ويجلّيه، ولذا وقع الاختيار عليها دون غيرها.

٧- أن أسلوب الترقي وتصعيد المعاني في النظم القرآني تتضافر فيه جميع العناصر اللغوية والنحوية، كما تلتئم فيه عناصر البلاغة وأساليبها في جميع علوم البلاغة الثلاثة – المعاني والبيان والبديع –، حتى تصل بانتظامها – بحسب المقام – وتضامّها إلى درجة التأثير البلاغي المعجز.

٨- أن دلالة المادة اللغوية القرآنية، معنىً وجرساً وتجويداً وصوتاً لها أثرها البالغ في ترقي المعنى المراد تصعيده في نطاق السياق، يوازي أو يُكمّل العناصر النحوية والبلاغية العامرة فيه، وهذه وتلك تخدم مقاصد النظم الحكيم وتحققه في أبهى صورة، وأجمل أسلوب وأوفاه.

٩- أن الصلة وطيدة مكينة بين البلاغة والنحو، فالبلاغة وثمارها نتيجة طبعية لإقامة قانون النحو وتطبيق قاعدته، فما النظم في دقائقه إلا نحو معلل في جملته [1]، فتعليل الظواهر النحوية والتنقير عن أسرارها يفضي إلى نكات بلاغية لطيفة وأسرار بيانية دقيقة، لذا فإن من رام البلاغة من غير هذا الباب فقد عطل الأسباب، وعثر دون الظفر بلطيف الجواب.

١٠- أن العمل بأسلوب " الفنقلة " [2] في التعامل مع النظم القرآني مما يثري الأسرار ويكشف دقائق الأستار عن حقائق الإعجاز، وبه ومن خلاله تستبين فروقات التعبير في أسلوب الترقي والتصعيد، ويظفر الباحث من خلاله بدرر مكنونة وجواهر نفيسة مصونة، ما كانت لتنجم لولا ذلك، وهذا ما وَفّق الله إليه وهدى، فجرى معظم

---

(١) انظر: النظم القرآني في آيات الجهاد: ٦٠٢.

(٢) الفنقلة: كلمة منحوتة من: فإن قلتَ لم عبر بكذا دون كذا – مثلاً –؟ فأقول: الجواب: كذا وكذا، وهذا الأسلوب اشتهر به الزمخشري في تفسيره: الكشاف، فنسب إليه ونقل عنه.

تحليل السورة عليه، فلله الحمد والمنة على ما فتح ويسّر ولطف. وأستغفره وأتوب إليه عما زل فيه الفهم أو شرد أو خطف.

* * *

فهرس المصادر والمراجع:

١- القرآن الكريم.

٢- البحر المحيط لمحمد بن يوسف أبي حيان الأندلسي الغرناطي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية: ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م.

٣- البلاغة العربية، لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم - دمشق، الطبعة الأولى: ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

٤- التبيان في علم المعاني والبديع والبيان / للعلامة شرف الدين حسين بن محمد الطيّبي، تحقيق: د. هادي عطية مطر الهلالي، مكتبة النهضة العربية، بيروت الطبعة الأولى: ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

٥- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن / لابن أبي الإصبع المصري (٥٨٥ - ٦٥٤ هـ) تحقيق: د. حفني شرف، ١٩٦٣م.

٦- التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور، مؤسسة التاريخ، بيروت لبنان، الطبعة الأولى: ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

٧- تفسير القرآن العظيم، للحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، حققه: مصطفى السيد محمد وزملاؤه، دار عالم الكتب، الرياض - السعودية، الطبعة الأولى: ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

٨- التفسير الكبير للفخر الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت الطبعة الثالثة، بدون تاريخ.

٩- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (- ٣٢٠هـ)، دار الفكر، بيروت، لبنان، طبعة: ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م.

١٠- الجامع لأحكام القرآن / لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الشروق، بدون تاريخ.

١١- الجنى الداني في حروف المعاني / للحسن بن قاسم المرادي، تحقيق: د. فخر الدين قباوه والأستاذ: محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

١٢- حاشية محيي الدين شيخ زادة على تفسير القاضي البيضاوي، المكتبة الإسلامية، محمد أزدمير - ديار بكر - تركيا، بدون تاريخ.

١٣- الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، د. غانم قدّوري الحمد، دار عمان، الطبعة الثانية، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

١٤- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، لشهاب الدين أبي العباس بن يوسف بن محمد المعروف بالسمين الحلبي، حققه الشيخ علي محمد معوض وزملاؤه، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

١٥- دلائل الإعجاز، للشيخ عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الثانية: ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.

١٦- روح البيان، للشيخ إسماعيل حقي البروسي، دار الفكر، بدون تاريخ.

١٧- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لشهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة: ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

١٨- شرح التلخيص، للشيخ أكمل الدين محمد بن محمد بن محمود بن أحمد البابرتي المتوفى سنة ٧٨٦هـ، تحقيق: د. محمد مصطفى رمضان صوفية، المنشأة العامة للنشر والتوزيع، طرابلس - ليبيا.

١٩- شروح التلخيص، لسعد الدين التفتازاني وابن يعقوب المغربي، وبهاء الدين السبكي، دار الهادي، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة: ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

٢٠- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لجار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، مكتبة العبيكان بالرياض، الطبعة الأولى: ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

٢١- اللباب في علوم الكتاب، لأبي حفص عمر بن علي بن عادل الدمشقي الحنبلي المتوفى في سنة ٨٨٠هـ، حققه: د. محمد سعد رمضان حسن وزملاؤه، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

٢٢- لسان العرب، لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار صادر، بيروت، لبنان.

٢٣- **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، لضياء الدين بن الأثير، تحقيق: د. أحمد الحوفي و د. بدوي طبانة، منشورات دار الرافعي بالرياض، الطبعة الثانية: ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٢٤- **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، لأبي محمد عبد الحق عطية الأندلسي، تحقيق: السيد عبد العال السيد إبراهيم، طبع على نفقة الشيخ: خليفة بن حمد آل ثاني، الطبعة الأولى: ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.

٢٥- **معجم مقاييس اللغة**، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبدالسلام هارون، دار الجيل، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

٢٦- **المفردات في غريب القرآن**، لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (- ٥٠٢هـ)، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

٢٧- **المقتضب**، لأبي العباس محمد بن يزيد المبرّد، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت، بدون تاريخ.

٢٨- **موسوعة النحو والصرف والإعراب**، د. إميل بديع يعقوب، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: ١٩٨٨م.

٢٩- **النكت والعيون**، لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري، راجعه: السيد عبد المقصود بن إبراهيم، مكتبة المؤيد بالرياض، الطبعة الأولى: ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

٣٠- **النحو الوافي**، لعباس حسن، دار المعارف بمصر، الطبعة الرابعة، بدون تاريخ.

٣١- **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، لبرهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، دار الكتب الإسلامي بالقاهرة، الطبعة الثانية: ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

٣٢- **النظم القرآني في آيات الجهاد**، لناصر بن عبد الرحمن الخنين، مكتبة التوبة، الرياض - السعودية، الطبعة الأولى: ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

* * *